



مع ابن كثير في تفسيره لتندبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا
وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهَا ۚ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ
الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ
كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۝﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآية قوله:

اشتملت هذه الآية على مثليين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في
اضمحلاله وفنايه. قال تعالى: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ ﴾ أي: مطراً ﴿ فَسَالَتْ
أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ۖ ﴾ أي: أخذ كل واحد بحسبه، فهذا كبير ويسع كثيراً من الماء، وهذا
صغير فوسع بقدره. وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علماً كثيراً،
ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم، بل يضيق عنها. ﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا ۚ ﴾ أي:
فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبد عال عليه. (هذا مثل).

وقوله: ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهَا ۚ ﴾ هذا
هو المثل الثاني، وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ﴿ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ ۖ ﴾ ليحصل

حَلِيَّةٌ أَوْ نُحَاسًا أَوْ حَدِيدًا، فيجعل متاعاً، فإنه يعلود زَبَدٌ منه، كما يعلو ذلك زَبَدٌ منه ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أي: إذا اجتماعاً لا ثبات للباطل ولا دوام، كما أن الزَبَدَ لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مِمَّا يُسَبِّكُ في النار، بل يذهب ويضمحل. ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ أي: لا يُنتَفَعُ به، بل يتفرق ويتمزق، ويذهب في جانبي الوادي، ويلتصق بالشجر، وتنسف الرياح. وكذلك خَبَثُ الذهب والفضة والحديد والنحاس، يذهب ولا يرجع منه شيء، ولا يبقى إلا الماء. وذلك الذهب ونحوه يُنتَفَعُ به. ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾^(١)

قال بعضُ السَّلَفِ: كنت إذا قرأتُ مثلاً من القرآن فلم أفهمه بكيتُ على نفسي؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾^(٢)

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ يقول: احتمل السَّيْلُ ما في الوادي من عودٍ ودمته^(٣) ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد، وللنحاس والحديد خَبَثٌ، فجعل الله مثل خَبَثِ كَرَبِدِ الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبت، فجعل

(١) العنكبوت: ٤٣.

(٢) الذَّمَنُ: البعز والكُرس. والذَّمْنَةُ: الموضع الذي يجتمع فيه الغنم فتلبذ أبوؤها وأبعارها فيه.

ذلك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيء يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، فكذلك الهدى والحق جاءا من عند الله، فمن عمل بالحق كان له، وابتنى كما يبقى الماء ينفع الناس في الأرض، وكذلك الحديد لا يستطيع أن يجعل منه سكن ولا سيف حتى يدخل في النار، فتأكل خبثه، فيخرج جيده، فينتفع به، فكذلك يضمحل الباطل إذا كان يوم القيامة، وأقيم الناس، وعرضت الأعمال، فيزيغ الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق.

أخي المسلم: ذاك مما ذكره الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾، ومن تدبر ذلك أيقن أن العمل بالحق باق لا يذهب، وأن العمل بالباطل مضمحل ذاهب.

وهذه الحقيقة قد يغفل كثير من الناس عنها وهم يتقلبون في زينة الحياة - ثبات الحق ومكثه وبقائه، وزوال غيره - وقد تقودهم الغفلة عن هذه الحقيقة إلى اتباع الباطل في ساعة استدراج لهم وإملاء، ثم يفجؤهم زوال ما اتبعوه، وقيام ما غفلوا عنه، وعندئذ يعلمون أن ما تعلقوا به - من غير الحق - باطل لا يملك ولا يبقى، وأن الحق وحده هو الذي يدوم ويبقى. والله هو الحق، وما يدعى من دونه الباطل.

إن أحداً غير الله لا يخلق شيئاً، بل يُخلق. ولا يملك رزقاً، بل يُرزق. وبالخلق يكون الخلق والموت والنشور، وما أعد من جنة أو نار. وكل ذلك لا يكون إلا بالحق. وقد ينكر الناس الحق ويحذونه في فترة عمر أو ساعة غفلة، وتكران الحق لا يعني غيابه، وجحوده لا يعني فقدانه. وسرعان ما تراههم - وقد أبصروا - يلومون

أنفسهم، ويتحسروا، ويقولون - في أسفٍ ونَدَمٍ - : ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (١)

وجدوا الحق، ولم يجدوا غيره. وكانوا من قبل قد جحدوه وأنكروه !

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (٢)

إن الإيمان ببقاء الحق حريٌّ ألا تتخذه النفس معه بزبد الباطل، أو تستخف بإملائه واستدراجه، أو تؤخذ بإغواء شياطينه، والذين يعملون على أن يلبسوا الباطل ثوب الحق، وأن يواروا الحق بزبد الباطل، نقول لهم: هيهات أن يبقى الباطل وأن يذهب الحق؛ فإن الباطل محكوم عليه بالذهاب والفناء مهما طفا وبدا. وللحق وحده الثبات والبقاء. ومن اتبع الحق سلم به، ومن اتبع الباطل هلك معه.

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴾ (٣) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴾ (٤)

(١) الأعراف: من الآية ٥٣.

(٢) الأنعام: ٣٠.

(٣) محمد: ١ - ٣.



مع ابن كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ السُّوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآية قوله:

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ مَالِ السُّعْدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ، فَقَالَ: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أَي: أَطَاعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَانْقَادُوا لِأَوَامِرِهِ، وَصَدَّقُوا أَخْبَارَهُ الْمَاضِيَةَ وَالْآتِيَةَ، فَهُمْ ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ وَهُوَ الْجَزَاءُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ أَنَّهُ قَالَ: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا﴾ (٢) وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (٣)، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (٤)

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ أَي: لَمْ يُطِيعُوا اللَّهَ ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا﴾

(١) الزمر: ١٨.

(٢) الكهف: ٨٧، ٨٨.

(٣) يونس: من الآية ٢٦.

فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴿٦٠﴾ أَي: فِي الْآخِرَةِ، لَوْ يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَفْتَدُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ، لَافْتَدَوْا بِهِ، وَلَكِنْ لَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرَفًا وَلَا عَدْلًا ﴿٦١﴾ أُولَئِكَ هُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ﴿٦٢﴾ أَي: فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ. أَي: يُنَاقَشُونَ عَلَى النَّقِيرِ وَالْقَطْمِيرِ، وَالْجَلِيلِ وَالْحَقِيرِ. وَمَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُدْب. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِمَنَافِعِ اللَّهِ﴾

أخي المسلم: ذاك ما ذكره الإمام ابن كثير من تفسير هذه الآية ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ أُولَئِكَ هُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَا أُولَئِكَ بِمَنَافِعِ اللَّهِ ﴿٦٣﴾

وتلك هي العاقبة لمن أحسن فاستجاب لربه فيما دعاه إليه وأمره به، ولمن أساء فلم يستجب وأعرض ونأى بجانبه ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ تلك عاقبتهم، وهذا جزاؤهم ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ أُولَئِكَ هُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَا أُولَئِكَ بِمَنَافِعِ اللَّهِ ﴿٦٤﴾ عاقبة يحذرها كل من يرجو لقاء ربه، فيحسن ولا يسيء، ويصلح ولا يفسد، ويعبد الله ولا يشرك به شيئاً. هؤلاء الذين أحسنوا العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح، لهم الحسن في الدار الآخرة ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (١)، كما قال الله ﷻ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ (٢)، والزيادة: هي تضعيف ثواب

(١) الرحمن: ٦٠.

(٢) يونس: من الآية ٢٦.

الأعمال بالحسنة عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، وزيادة على ذلك أيضاً، ويشمل ما يُعطيه الله في الجنان من القصور والخور العين، والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرّة أعين. وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم؛ فإنه زيادة أعظم من كل ما أعطوه. لا يستحقونها بعملهم، بل بفضل ربهم ورحمته.

وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبي بكر وحذيفة وعبد الله بن عباس، وكثير من التابعين. وقد وردت أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ، من ذلك: ما رواه الإمام أحمد، عن صهيب رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وقال: إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَى مُنَادٌ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ (١) فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا، وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَيُدْخِلَنَا الْجَنَّةَ، وَيُجِرَّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ لَهُمُ الْحِجَابُ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمْ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَلَا أَقَرَّ بِأَعْيُنِهِمْ» (٢)

وذكر ابن جرير عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يحدث عن رسول الله ﷺ «إن الله تعالى يبعث يوم القيامة منادياً ينادي: يا أهل الجنة - بصوت يسمعه أولهم وآخرهم - إن الله وعدكم الحسنى وزيادة. فالحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن ﷻ» (٣)

(١) من الإنجاز وهو الإيفاء.

(٢) الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة يونس، رقم ٣٠٣٠، وقال: رواه غير واحد عن حماد بن سلمة مرفوعاً.

(٣) تفسير الطبري: ٦٥/١٥، اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢/٢٧٠.

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١)

ذاك جزاء من استجابوا لرَّبِّهم وأحسنوا. لهم ﴿ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ ﴾ أي: قتامٌ وسوادٌ في عَرَصَاتِ المحشر، كما يعترى وجود الكفرة الفجرة من القَتَرِ وَالْعَبْرَةِ ﴿ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ أي: هوانٌ وصغار، أي: لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر، بل هم كما قال تعالى في حقهم ﴿ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شِرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعَهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ (٢) أي: نَضْرَةً في وجههم، وسروراً في قلوبهم.

أخي المسلم: تدبّر ما جاء في هذه الآية ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ۖ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمْ سُوءَ الْحِسَابِ وَمَأْوِلُهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَيُسَّ إِلَهُادُ ﴾

تلك العاقبة لمن أحسن ولمن أساء، فليحاسب كلُّ إنسان نفسه، وليخلص قصده، وليبصر عمله قبل أن تأتي ساعة الفصل التي يتحدّد فيها المصير، وهي آتية لا ريب فيها ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۖ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ زَوْفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٣)

(١) يونس: ٢٦.

(٢) الإنسان: ١١.

(٣) آل عمران: ٣٠.



مع ابن كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۝﴾^(١)

فقد جاء في تفسير هذه الآية قوله:

هذا حال الأشقياء وصفاتهم، وذكر ما لهم في الدار الآخرة، ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء، وهؤلاء ينفقون عهد الله وميثاقه ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، كما ثبت في الحديث «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ»^(٢)، وفي رواية: «وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»^(٣)، ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ وهي: الإبعاد عن الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۝﴾ وهي سوء العاقبة والمآل ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِبَشِيرٍ لَكُمْ﴾^(٤)، وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ...﴾ الآية ﴿قال: هي ست

(١) الرعد: ٢٥.

(٢) البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم ٢٣.

(٣) البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم ٣٣.

(٤) الرعد: من الآية ١٨.

حِصَالٍ فِي الْمُنَافِقِينَ: إِذَا كَانَ فِيهِمُ الظُّهْرَةُ عَلَى النَّاسِ أَظْهَرُوا هَذِهِ الْحِصَالِ: إِذَا حَدَّثُوا كَذِبًا، وَإِذَا وَعَدُوا أَخْلَفُوا، وَإِذَا اتَّعَمَّنُوا خَانُوا، وَنَقَضُوا عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ، وَقَطَعُوا مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَأَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ. وَإِذَا كَانَتِ الظُّهْرَةُ عَلَيْهِمْ، أَظْهَرُوا الثَّلَاثَ حِصَالٍ: إِذَا حَدَّثُوا كَذِبًا، وَإِذَا وَعَدُوا أَخْلَفُوا، وَإِذَا اتَّعَمَّنُوا خَانُوا.

أَخِي الْمُسْلِمُ: ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾

صِفَاتُ تِلْكَ نَتَائِجُهَا، وَهَذَا جِزَاءُ أَهْلِهَا ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾، أَمَّا الَّذِينَ اتَّصَفُوا بِالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَهُمْ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيُصْلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُفْسِدُونَ، الَّذِينَ اتَّصَفُوا بِالصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُخَبِّرُ عَنْهُمْ، بِأَنْ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ، وَهِيَ الْعَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ مِنْ صِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ وَإِلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَحَاوِجِ، وَبَذَلِ الْمَعْرُوفِ ﴿وَتَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أَيُّ: فِيمَا يَأْتُونَ وَمَا يَذَرُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ، يَرِاقِبُونَ اللَّهَ فِي ذَلِكَ، وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أَيُّ: عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْآثَامِ، فَفَطَمُوا أَنْفُسَهُمْ عَنْهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؛ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ وَجَزِيلِ ثَوَابِهِ ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ بِحُدُودِهَا، وَمَوَاقِيتِهَا، وَرُكُوعِهَا، وَسُجُودِهَا، وَخَشَوْعِهَا عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ الْمُرْضِيِّ ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أَيُّ: عَلَى الَّذِينَ يَجِبُ

عليهم الإتفاق لهم، من زوجاتٍ وقراباتٍ وأجانبٍ من فقراءٍ ومساكينٍ ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: في السرِّ والجهر، لم يمنعهم من ذلك حالٌ من الأحوال، آناء الليل أو أطراف النهار ﴿وَيَذَرُوكَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾ أي: يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحدٌ قبلوه بالجميل؛ صبراً واحتمالاً، وصفحاً وعفواً.

قال الله مُخْبِراً عن هؤلاء السُّعْدَاءِ الْمُتَصِفِينَ بهذه الصفات الحسنة ﴿أُولَئِكَ هُمُ عُقَى الدَّارِ﴾ جَنَّتْ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقَى الدَّارِ﴾ (١)

تدبر صفات هؤلاء، وأولئك السعداء والأشقياء ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُوكَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ هُمُ عُقَى الدَّارِ﴾ تلك صفات السعداء، وهذا جزاؤهم.

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وتلك صفات الأشقياء، وهذا مصيرهم، فانظر إلى آثار هؤلاء وأولئك، وزن النتائج دُنْيَا وَآخِرَى، فسترى أن دُنْيَا النَّاسِ لَنْ يَسْتَقِيمَ لها حالٌ مع صفات الأشقياء الذين ينقضون عهد الله من

بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض. ولا بُدَّ لأمنِ الناس وسلامهم، واستقامة أمرهم، وصلاح أحوالهم من صفات السعداء الذين يُوفون بعهد الله، ولا ينقضون الميثاق، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل. لا بُدَّ لصفات هؤلاء أن تسود، ولا بُدَّ أن يُدْفَعَ بالتي هي أحسن؛ لتسلم دُنْيَا الناس من ظلمٍ وفسادٍ.

إن حياة الناس لا تصلح ولا يستقيم أمرها بكذبٍ وغدرٍ، وقطيعةٍ ونقضٍ، وخيانة، ولا بُدَّ من دفع هذه الصفات بما شرع الله من ضوابط وحدود ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١)

ومن هنا أوجب الله على المؤمنين أن يكونوا قوةً عاملةً على إعلاء كلمة الله.

وفي إعلاء كلمة الله انتصارٌ للفضائل، ودحرٌ للرذائل..

في إعلاء كلمة الله تحقيقٌ للوفاء والأمانة، والبرِّ والصَّلة، والحق والعدل، وهي صفات لا بُدَّ منها لأمنِ الناس وسلامهم.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ هُدًى مِّنْ صَّوْمِعٍ وَبَيْعٍ وَصَلَوَاتٍ وَمَسْجِدٍ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢)

في إعلاء كلمة الله درءٌ للفساد، وانتصارٌ للفضائل التي لا غنى لأمنِ الناس عنها، وما لم تنتصر بفضلنا لم نغلب بقوتنا.

والذين يرجون نصرَ الله عليهم أن ينصروا الله أولاً في أنفسهم، ولن يستطيعوا

(١) البقرة: من الآية ٢٥١.

(٢) الحج: من الآية ٤٠.

أن ينصروا الله في مواجهة أهل الفساد ما لم ينصروه في أنفسهم، بتغليب أمره على أهوائهم. وإن هم خذلوا الله في الأولى، فمحال أن يطلبوا نصره في الثانية، وهو الذي جعل هذه بتلك، فقال: ﴿يَتَأْبَأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنصَرُوا لِلَّهِ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (١)

فلتتمسك - إذن - بصفات السعداء؛ فإنها لدنيانا وأخرانا. ولتجنب صفات الأشقياء؛ فإنها دمار لدنيانا، وخسران لأخرانا.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعِمَّةَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ (٢)

﴿١٢٨﴾

(١) محمد: ٧.

(٢) الرعد: ٢٠، ٢١.